تقديم مركز نهوض للدراسات والبحوث

يُمثِّل الفعل الثوريُّ -من حيثُ هو تحرُّك شعبيٌّ واسع النطاق يروم تغيير نظام الحُكْم القائم- مبحثًا معرفيًّا مهمًّا انشغلت به من قديمٍ ثلاثةُ علوم متآزرة؛ هي: علم التاريخ، وعلم السياسة، وعلم الاجتماع. فالتاريخ يدرس وقائعَ هذا الفعل ويرصد تجلياته الظاهرة عبر العصور، والاجتماعُ والسياسةُ يحاولان التنظير له والبحث في بواعثه وشروطه الموضوعية، مع الانتفاع في ذلك بما يقدِّمه التاريخُ من معطيات.

ومن المدهش حقًّا أن عِلْم الأنثروبولوجيا لم يُعْنَ بدراسة الثورات السياسية تلك العناية المعهودة في العلوم المشار إليها إلا منذ نحو ثلاثة عقود، على الرغم من كثرة الثورات التي شَهِدَتْها المجتمعاتُ الإنسانيةُ في العصر الحديث، وما ترتَّب عليها من تغيُّرات جذرية ومباغتة في البنية السياسية لهذه المجتمعات وتقاليدها الاجتماعية وقيمها الثقافية. ولئن أمكن الحديثُ عن وجود إرثٍ أنثروبولوجيٍّ يتناول بالدرس مسألتي المعارضة والمقاومة، فإننا لا نستطيع الحديث عن دراسات رصينة للثورات السياسية في مجتمعات الدولة القومية الحديثة من منظور أنثروبولوجي. ومن هنا، فإن المراجع الأنثروبولوجية توشك أن تخلو من دراسة «الفِعْل الثوري» تلك الدراسة الكثيفة التي نجدها في علوم التاريخ والسياسة والاجتماع، بل إن هذه المراجع ما كانت تشير إلى الثورة إلا بوصفها لونًا من ألوان التغيير الاجتماعي في الأزمنة التاريخية الطويلة، كالثورة الصناعية في أوروبا وما أشبه.

وعلى هذا النحو، ظلت اليدُ الباسطةُ في دراسة موضوع «الثورة» هي

يدَ المؤرِّخ أو يدَ عالم السياسة أو يدَ الباحث في شؤون الاجتماع، فلا جرمَ كان تأثيرُهم أوسع نطاقًا من تأثير علماء الأنثروبولوجيا، كما بلغت أدواتُهم التحليليةُ حدًّا من النضج أتاح لهم الهيمنة على هذا الحقل وما يتصل به من قضايا ومسائل. ولم يكن من المستغرب -والحالُ كذلك- أن يضع المؤرخون وعلماءُ السياسة عشرات الكتب والأبحاث في موضوع الثورة بغير التفاتٍ يُذكَر إلى المراجع الأنثروبولوجية، وهم معذورون في ذلك بلا شكٍّ؛ لأن الإعراض عن دراسة الثورات السياسية إنما نشأ من داخل الحقل الأنثروبولوجي نفسه.

ثم كان أن شهدت تسعينياتُ القرن المنصرم ما يمكن اعتبارُهُ باكورة المقاربات الأنثروبولوجية الجادة لمسألة الثورات السياسية. ولا يَبْعُدُ أن يكون هذا التحولُ الملحوظ موصولَ السبب بما وقع في العالم خلال هذه الحقبة من ألوان التغيرات السياسية؛ فوجد علماء الأنثروبولوجيا ما استحثَّهم على إيلاء الفعل الثوري ما هو جدير به من حفاوة واهتمام يُكافئان عمق تأثيره في المجتمعات المعاصرة.

على أن علماء الأنثروبولوجيا نهجوا في دراستهم للفعل الثوري سبيلًا غيرَ سبيل المؤرخين وأضرابهم من علماء السياسة والاجتماع؛ إذ صرفوا عنايتَهم إلى ما يمكن تسميتُهُ بـ«التغيير من أسفل»، وهو نمطُ التغيير الذي يرتبط أوثقَ ارتباطٍ بفئات المهمشين وما يصطنعونه من وسائل للمقاومة والكفاح في المستوى الأدنى من مستويات الفعل السياسي، في حين ظلت الثورات السياسية التي تقع في إطار ما يُسمَّى بـ«السياسة الفوقية أو السياسة العليا» -كالثورة الفرنسية أو الثورة البلشفية أو الثورة الإيرانية- واقعةً في صميم الحقل المعرفي الذي يشغل المؤرخين وعلماء السياسة.

ولعل أشهر دراسة تُعبِّر عن طبيعة المقاربة الأنثروبولوجية للثورات

أو التمرد السياسي هي تلك الدراسة المعنونة بـ«**أسلحة الضعيف**» (Weapons of the Weak) لجيمس سكوت (١٩٨٥م)، الذي ذهب إلى أننا لسنا بحاجةٍ إلى دراسة الأحداث الكبرى فحسب، كالانتفاضات والإضرابات العامَّة والثورات بوصفها تجلياتٍ للمقاومة السياسية، ولكننا بحاجة أيضًا إلى الاهتمام بالتفاعلات الصغيرة التي يقوم بها عمومُ الشعب (من الفلاحين والمزارعين) للنهوض بأوضاعهم المعيشية وتحسينها؛ تمهيدًا لإحداث التغيير المنشود.

يمكن القول إذن: إن المقاربة الأنثروبولوجية للفعل الثوري تُعنى بما أغفله المؤرخون وعلماءُ السياسة والاجتماع من أشكال المقاومة والتمرُّد اليومية؛ كالأغاني والروايات الأدبية والنِّكَات الشعبية المتداولة، وعبارات السخرية المنتشرة على وسائل التواصل الاجتماعي من أفعال الحُكَّام والنخبة السياسية وتصريحاتهم... وما إلى ذلك مما يُسهم بالطبع في لفتِ أنظارنا إلى ألوانٍ من المشاركة السياسية الشعبية التي قد لا يبالي بها الدرس التاريخي أو البحث السياسي.

وعرفانًا بأهمية هذا الباب -المغفول عنه- من أبواب الأنثروبولوجيا السياسية، تأتي ترجمةُ هذه الدراسة الموسومة بـ«**عندما يثور البسطاء: مقاربات أنثروبولوجية للثورات السياسية**» لبيورن توماسون، وهي الدراسة التي نُشرت في الأصل سنة ٢٠١٢م بدورية جامعة كامبريدج للدراسات المقارنة في التاريخ والاجتماع بعنوان (Notes towards an Anthropology of Political Revolutions)، ثم بدا للمترجم أن يُصَدِّر العنوانَ بعبارة دالة هي: «**عندما يثور البسطاء**»؛ إشارةً إلى الاشتغال الرئيس للأنثروبولوجيا التي تهتمُّ بدراسة الظواهر الاجتماعية والسياسية عبر التركيز على تفاعل الإنسان مع هذه الظواهر.

والحقُّ أن الظاهرة السياسية -من حيثُ هي مبحثٌ معرفيٌّ- تشغل حيزًا معتبرًا في المشروع الفكري **لمركز نهوض للدراسات والبحوث؛** ولهذا نَشَر المركز عددًا من المؤلفات والترجمات التي تسلِّط ضوءًا كاشفًا على هذه الظاهرة في تجلياتها المختلفة، وكان حريصًا على أن تتضمَّن هذه الأعمالُ مقاربات متنوعة لهذه الظاهرة المهمة. فنَشَر على سبيل المثال: «**التفكير السياسي والنظرية السياسية والمجتمع المدني**» لستيفن ديلو وتيموثي ديل، و«**أنا الشعب: تأملات حول السيادة الشعبية في عالم اليوم**» لبارثا تشاترجي، و«**في النظرية السياسية الإسلامية**» للدكتور علي فهد الزميع، و«**خلافة الإنسان: السيادة الشعبية في الفكر الإسلامي الحديث**» لأندرو مارتش.

وتمثِّل هذه الدراسةُ التي نقدم لها «**عندما يثور البسطاء**» مقاربة أنثروبولجية جديدة لمسألة الثورة، بوصفها ظاهرة سياسية. ومما يَدُلُّك على أهمية المقاربة الأنثروبولوجية في العموم اعترافُ علماء السياسة بشدَّة الحاجة إليها، بل إن بعض المتخصِّصين في السياسة المقارنة جعلوها شرطًا لازمًا لكل علمٍ سياسيٍّ مقارن.

وقد أحسن الأستاذ خالد عثمان الفيل أيَّما إحسان في ترجمة هذه الدراسة وتحريرها، فخرجت في عربية مستقيمة لا تكاد تجد فيها شيئًا من غموض أو تكلُّف، وجاءت حافلةً بالحواشي التي تضيء النصَّ وتأخذ بيد قارئه إلى الوقوف على مرادات مؤلِّفه.

وبعدُ، فإننا بنشرنا لهذه الدراسة صغيرة الحجم جليلة الفائدة، نتيح لقُرَّاء العربية مقاربة جديدة لإحدى الظواهر السياسية المهمة، آملين أن يجدوا فيها زادًا معرفيًّا خصبًا نافعًا.